نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم به لم يجزع ولم يضق به ذرعا إلاّ كراهة ضعيفة إن وجدها فى قلبه فيردّها فى الحال بعقله وايمانه ولو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يدخله سرور بسبب اطلاعهم عليه . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غنىٌّ و الآخر فقيرٌ فلا يجد عند اقبال الغنىّ زيادة هزّة في نفسه لا كرامه إلاّ إذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغنى . فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع *

ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلاّ أن تخرج ماسوى الله من قلبك وتتجرّد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغّصة فى أيّام متقاربة *

كتاب ذم الكبر والعجب

﴿ ماورد فى ذم الكبر ﴾

قال تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وقال تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ *

وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ فى قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ ﴾ وقال عليه السلام ﴿ يَقُولُ اللهُ تَعالى الكِبْرِياءُ رِدائِى وَالعَظَمَةُ إزارِى فَمَنْ نازَعَنِي واحِدًا مِنْهُما أَلْقَيْتُهُ فى جَهَنَّمَ وَلا أُبالِى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلا جَبّارٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَنْظُرُ اللهُ إلى رَجُلٍ يَجُرُّ إزارَهُ بَطَرًا ﴾ وجاء فى فضل التواضع قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ما زادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلّا عِزًّا وما تَواضَعَ أَحَدٌ لِلّهِ إلّا رَفَعَهُ اللهُ ﴾ وعنه عليه الصلاة والسلام ﴿ طُوبى لِمَنْ تَواضَعَ فى غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مالًا جَمَعَهُ فى غَيْرِ مَعْصِيَةٍ . وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ والمَسْكَنَةِ وَخالَطَ أَهْلَ الفِقْهِ وَالحِكْمَةِ ﴾ وعنه عليه السلام ﴿ مَنْ تَواضَعَ لِلّهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ . وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْناهُ اللهُ . وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ ﴾ *

وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ـ أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبىّ قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته *

﴿ بيان حقيقة الكبر وآفته ﴾

اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق فى النفس . والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى وآفته عظيمة وغائلته هائلة وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ﴾ وانما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها . وتلك

الأخلاق هى أبواب الجنة . والكبر وعزّة النفس يغلق تلك الأبواب كلها . لأن المتكبر لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين ولا يقدر على ترك الحقد ولا يقدر أن يدوم على الصدق ولا يقدر على ترك الغضب ولا يقدر على كظم الغيظ ولا يقدر على ترك الحسد ولا يقدر على النصح اللطيف ولا يقدر على قبول النصح ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم وبالجملة فما من خلق ذميم إلاّ وصاحب العزّ والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزّه وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزّه فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه . وشرُّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين *

ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره . ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين بقوله ﴿ الكبرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمصُ الخَلْقِ ﴾ أى ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الأولى و بطر الحق هو رده وهى الآفة الثانية . فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر ونازع الله فى حقه *

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعزّ والعظمة لا يليق الا بالملك القادر فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شئ فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير فمهما تكبر العبد فقد نازع الله

تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله ومثاله أن يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه. فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه *

ووجه الآفة الثانية أن من سمع الحق من عبد من عباد الله واستنكف عن قبوله وتشمّر لجحده فما ذاك إلاّ للترفع والتعاظم واستحقار غيره حتى تأبى أن ينقاد له وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فكل من يتضح له الحق على لسان أحد ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك من تحمله الأنفة على قبول الوعظ كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ﴾ *

﴿ بيان ما به التكبر ﴾

اعلم أنه لا يتكبر إلاّ من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلاّ وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع الى كمال دينى أو دنيوى فالدينى هو العلم والعمل والدنيوى هو النسب والجمال والقوّة والمال وكثرة الأنصار فهذه سبعة أسباب *

(الأوّل العلم) وما أسرع الكبر الى بعض العلماء فلا يلبث أن

يستشعر في نفسه كمال العلم فيستعظم نفسه و يستحقر الناس و يستجهلهم و يستخدم من خالطه منهم وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجولهم . وسبب كبره بالعلم أمران (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما في الحقيقة فان العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربّهُ ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ *

(ثانيهما) أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخلة ردىء النفس سيئ الأخلاق . فانه لم يشتغل أوّلاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات فبقي خبيث الجوهر فاذا خاض في العلم صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره . ولم يظهر في الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلا . فقال : العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشرب به الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوّله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد مايتكبر به فازداد كبرا واذا كان الرجل خائفا مع علمه فازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا *

(الثاني العمل والعبادة) وليس يخلو عن رذيلة الكبر واستمالة قلوب الناس العُبّادُ فيترشح منهم الكبر في الدّين والدُّنيا . أما في الدُّنيا فهو أنهم

يتوقّعون ذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس . وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا سَمِعتُمُ الرَّجلَ يَقولُ هَلَكَ النّاسُ فَهُوَ أهْلَكُهُمْ ﴾ وانما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنّه مزدرٍ بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته . وكيف لا يخاف ويكفيه شرًّا احتقاره لغيره . قال صلى الله عليه وسلم ﴿ كَفَى بِالمَرءِ شَرًّا أن يُحقِّرَ أخاهُ المُسلِمَ ﴾ وكثيرٌ من العُبّاد اذا استخفّ به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله . وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم الى أن يتحدّى ويقول سترون مايجرى عليه واذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد إلاّ الانتقام له مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبُّون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثمّ أن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدُّنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدُّنيا ولا فى الآخرة . أفيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم لهُ بما لم ينتقم لأنبيائه به . ولعله فى مقت الله باعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه . فهذه عقيدة المغترين . وأما الأكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله بعض السلف بعد انصرافه من عرفات ﴿ كُنتُ أرجُو الرَّحمَةَ لجَمِيعِهِم

لولاَ كونى فِيهم ﴾ فانظر الى الفرق بين الرجلين . هـذا يتقى الله ظاهراً وباطنا وهو وجل على نفسه مزدرٍ لعمله . وذاك يضمر من الرياء والكبر والغل ماهو ضحكة للشيطان به ثم أنه يمتن على الله بعمله . ومن آثار الكبر فى العابد أن يعبس وجهه كأنه متنزّه عن الناس مستقذر لهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتي يضم انما الورع في القلوب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ التّقوَى هَهنا ﴾ وأشارَ إلى صَدرِهِ فقد كان صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا كما قال تعالى ﴿ وَاخفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤمِنينَ ﴾ *

(الثالث) التكبر بالحسب والنسب فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم وقد يجرى على لسانه التفاخر به فيقول لغيره من أنت ومن أبوك فأنا فلان بن فلان ومع مثلى تتكلم . وقد روى أن أبا ذر رضي الله عنه قال قاولت رجلا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فغضب صلى الله عليه وسلم وقال ﴿ يَا أَبَاذَرٍّ لَيسَ لاِبنِ البَيضاءِ عَلى ابنِ السَّوداءِ فَضلٌ ﴾ فقال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى فانظر كيف نبهه صلى الله عليه وسلم على أن ذلك جهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر إذ عرف أن العز لا يقمعه إلاّ الذل *

(الرابع) التفاخر بالجمال وذلك أكثر مايجرى بين النساء ويدعو ذلك الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس *

(الخامس) الكبر بالمال وذلك يجرى بين الأمراء والتجار فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنىّ الفقير ويتكبر عليه وكل ذلك جهل بفضيلة الفقر وآفة الغنى *

(السادس) الكبر بالقوّة وشدّة البطش والتكبر به على أهل الضعف

(السابع) التكبر بالاتباع والأنصار والعشيرة والأقارب فهذه مجامع مايتكبر به العباد بعضهم على بعض نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته *

﴿ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه ﴾

﴿ أثر التواضع والتكبر ﴾

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا واطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد ويظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ومنها أن لايمشى إلاّ ومعه غيره يمشى خلفه ومنها أن لايزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدّين وهو ضدّ التواضع ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلاّ أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه ومنها أن لايتعاطى بيده شغلا فى بيته والتواضع خلافه روى

أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم الى المصباح فأصلحه فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هى أول نومة نامها فقام وملأ المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر مانقص منى شئ وخير الناس من كان عند الله متواضعا ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال على لا ينقص الرجل الكامل من كماله ماحمل من شئ الى عياله ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وعلامة المتكبر فيه حرصه على التزين للناس للشهرة والمخيلة وأما طلب التجمل لذاته فى غير سرف ولا مخيلة فليس من الكبر . والمحبوب الوسط من اللباس الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿كُلوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فى غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه فذلك هو الأصل وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغى أن يقتدى به ومنه ينبغى أن يتعلم وقد قال ابن أبى سلمة قلت لأبى سعيد الخدرى ماترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال (يا ابن أخى كل لله . واشرب لله . والبس لله . وكل شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف . وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان

يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . كان يحلب الشاة . ويخصف النعل . ويرقع الثوب . ويأكل مع خادمه . ويشترى الشئ من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده . يصافح الغنىّ والفقير . ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير . يجيب إذا دعى . ولا يحقر مادعى اليه . لين الخلق . جميل المعاشرة . طليق الوجه . شديد فى غير عنف . متواضع فى غير مذلة . جوّاد من غير سرف . رقيق القلب). (زادت عائشة رضى الله عنها) وأنه صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً . ولم يبث الى أحد شكوى وان كانت الفاقة لاحبّ اليه من اليسار والغنى *

فمن طلب التواضع فليقتد به صلى الله عليه وسلم . ومن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين . فلا عزّ ولا رفعة إلاّ فى الاقتداء به *

﴿ بيان الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع ﴾

اعلم أن الكبر من المهلكات . وازالته فرض عين . ولا يزول بمجرّد التمنى بل بالمعالجة وفى معالجته مقامان (أحدهما) قلع شجرته من مغرسها فى القلب (الثانى) دفع العارض منه بالأسباب التى قد يتكبر بها *

﴿ المقام الأول فى استئصال أصله ﴾

علاجه علمى وعملىّ . ولا يتم الشفاء إلاّ بمجموعهما . أما العملىّ فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى . ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر فانه مهما

عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلاّ التواضع واذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله . أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول . وأما معرفته نفسه . فهو أيضاً يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله . فان في القرآن علم الأوّلين والآخرين لمن فتحت بصيرته قال تعالى ﴿ قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ فقد أشارت الآية الى أوّل خلق الانسان والى آخر أمره والى وسطه فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الانسان فهو أنه لم يكن شيأ مذكورا وقد كان في حيّز العدم دهورا وأي شيء أخسّ من العدم ثم خلقه الله من أقذر الأشياء إذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظما ثم كسا العظم لحما فهذا بداية وجوده فما صار شيأ مذكوراً إلاّ وهو على أخسّ الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جماداً ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوّته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبيكمه قبل نطقه وبضلاله قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ثم امتن عليه فقال ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ وهذا اشارة الى ماتيسر له في مدة حياته الي الموت . وانما خلقه من

التراب الذليل الذى يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد عدمها ليعرف خسة ذاته فيعرف بها نفسه وانما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربّهُ ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لايليق الكبرياء إلاّ به جلّ وعلا فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أضعف الضعفاء . ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم وذلك لدلالة خسةِ أوّلِه ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله * نعم لو أكمله وفوّض اليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ولكنه سلّط عليه فى دوام وجوده الأمراض والآفات يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً يريد أن يعلم الشئ فيجهله ويريد أن يذكرالشئ فينساه ويريدأن ينسى الشئ ويغفل عنه فلا يغفل عنه ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهارهأن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع مايهواه فى دنياه . فهو مضطر ذليل . انترك بقى وان اختطف فنى عبد مملوك لايقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره فأى شئ أذل منه لو عرف نفسه وأنّى يليق الكبر به لولا جهله فهذا وسط أحواله فليتأمله وأما آخره فهو الموت المشار اليه بقوله تعالي ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره . وعلمه وقدرته وحسّه وادراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لايبقى إلاّ شكل

أعضاؤه وصورته لا أحسّ فيه ولا حركة ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويأكل الدود أجزاءه فيصير روثا فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل انسان ويهرب منه لشدة الانتان وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلا فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقه وأرض مبدله وجبال مسيّرة ونجوم منكدره وشمس منكسفه وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشوره فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما تنطق به أو تعمله من قليل أو كثير وصغير وكبير قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلمّ الى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق الى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد مافيها من مخازيه فاذا شاهده قال ﴿ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ فهذا آخر أمره . وهو معنى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم بل ماله وللفرح فضلا عن البطر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا أو

يلقى عذابا فمن هذا حاله في العاقبة إلاّ أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر حقاً يكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة وذلا فهذا هو العلاج العملى القامع لأصل الكبر وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه من شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أحوال الصالحين ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلاّ بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالايمان وبالصلاة جميعاً وقيل الصلاة عماد الدّين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ومن جملتها مافيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع وبالسجود وقد كان العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذّلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع فى قلوبهم وبه أمر سائر الخلق *

﴿ المقام الثانى ﴾

﴿ فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة ﴾

ذكرنا فى كتاب ذمّ الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل فأما ماعداه مما يفنى بالموت فكمال وهمىّ ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع أسبابه السبعة (الأوّل النسب) فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره .

ومن كان خسيساً فمن أين تجبر خسته بكمال غيره وبمعرفة نسبه الحقيقي أعني أباه وجده فان أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب وقد عرّف الله تعالى نسبه فقال ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ فاذا كان أصله من التراب وفصله من النطفة فمن أين تأتيه الرفعة فهذا هو النسب الحقيقي للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب

(الثاني) الكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر الى باطنه نظر العقلاء . ولا ينظر الى الظاهر نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال إذ خلق من أقذار ووكل به في جميع أجزائه الاقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الاقذار وجماله لا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو سبب من الاسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها (الثالث) الكبر بالقوة ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط الله عليه من العلل والامراض وانه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز أو أن شوكة لو دخلت في رجله لاعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر في مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته ثم ان قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأي افتخار في صفة يسبقك بها البهائم *

(السبب الرابع والخامس) الغنى وكثرة المال وفي معناه كثرة الاتباع والأنصار والتكبر بالمناصب والولايات وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن

ذات الانسان وهذا أقبح أنواع الكبر فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلا وكم فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل فأفقر لشرف يسبقه به يهودى أو يأخذه سارق فى لحظة فيعود ذليلا مفلسا *

(السادس) الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين (أحدهما) أن يعلم ان حجة الله على أهل العلم آكد وانه يحتمل من الجاهل مالا يحتمل عشره من العالم فان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم (ثانيهما) ان يعرف ان الكبر لا يليق الا بالله عز وجل وحده وانه اذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا فهذا مما يزيل التكبر ويبعث على التواضع . واذا دعته نفسه للتكبر على فاسق أو مبتدع فليتذكر ما سبق من ذنوبه وخطاياه لتصغر نفسه فى عينه وليلاحظ ابهام عاقبته وعاقبة الآخر فلعله يختم له بالسوء ولذلك بالحسنى حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه . ولا يمنعه ترك التكبر عليه أن يكرهه ويغضب لفسقه بل يبغضه ويغضب لربه اذ أمره أن يغضب عليه من غير تكبر عليه (السابع) التكبر بالورع والعبادة وذلك فتنة عظيمة على العُبّاد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد قال وهب ابن منبّه : ماتم عقل عبد حتى يكون فيه خصال : وعد منها خصلة . قال : بها ساد مجده . وبها علا ذكره . أن يرى الناس كلهم خيرا منه . وانما الناس عنده فرقتان فرقة هى أفضل منه وأرفع . وفرقة هى شرّ منه وأدني . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه . وان رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وان رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو واهلك أنا . فلا تراه

الا خائفا من العاقبة . ويقول لعل برّ هذا باطن فذلك خير له ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال . وبرّى ظاهر فذلك شرّ لى فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . قال : فحينئذ كمل عقله . وساد أهل زمانه *

والذى يدلّ على فضيلة هـذا الاشفاق قوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى ﴿ إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات بالدؤوب على الاشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهار لاَ يَفْتُرُونَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ فمتى زال الاشفاق والحذر غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد *

فاذن مايفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب إلاّ أنّ النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها فمن هـذا لاينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغى أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس *

و بيانه أن يمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج مافي الباطن والامتحانات كثيرة . فمنها وهو أوّلها : أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه فان ظهر شئ من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والشكر له على تنبيهه فذلك يدلُّ على أن فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه و يشتغل بعلاجه . أمّا من حيث العلم فبأن يُذَكّر نفسَهُ خسةَ نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلاّ بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ماثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز و بشكره على الاستفادة ويقول ما أحسنَ مافطنتَ لهُ وقد كنتُ غافلا عنه فجزاك الله خيراً كما نهتنى له فالحكمة ضالّة المؤمن فاذاوجدها ينبغى أن يشكر من دلّه عليها فاذا واظب على ذلك مرّات متوالية صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر *

(الامتحان الثانى) أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل و يقدمهم على نفسه و يمشي خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم فان ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر *

وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس فى صف النعال أو يجلس بينه و بين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر . فانّ ذلك يَخِفّ على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر باظهار التواضع أيضا بل ينبغى أن

يقدّم أقرانه ويجلس بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن *

(الامتحان الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ويمرّ الى السوق فى حاجة الرّفقاء والأقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلاّ لخبث فى الباطن فليشتغل بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ماذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر *

(الامتحان الرابع) أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق الى البيت فان أبت نفسه ذلك فهو كبير أو رياء *

وكل ذلك من أمراض القلوب وعلله المهلكة له ان لم تتدارك . وقد أهمل الناس طبّ القلوب واشتغلوا بطبّ الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لامحالة والقلوب لاتدرك السعادة إلاّ بسلامتها إذ قال تعالى ﴿ إلاّ مَنْ أتى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ *

﴿ بيان غاية الرياضة فى خلق التواضع ﴾

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط فطرفه الذى يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذى يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعاً والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة وتخاسس فان (كلا طرفى قصد الأمور ذميم) وأحبّ الأمور الى الله تعالى أوساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أى وضع

شيأ من قدره الذى يستحقه والعالم اذا دخل عليه دنى فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نمله وغدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهو أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطى كل ذى حق حقه فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فأما تواضعه للسوقى فبالقيام والبشر فى الكلام والرفق فى السؤال واجابة دعوته والسعي فى حاجته وأمثال ذلك وأن لايرى نفسه خيرا منه فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لايعرف خاتمة أمره *

﴿ بيان ذم العجب وآفاته ﴾

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْأً ﴾ ذكر ذلك في معرض الانكار وقال عزّ وجلّ ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ فرد على الكفار فى اعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صنعاً ﴾ وهذا أيضا يرجع الى العجب بالعمل وقد يعجب الانسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ﴾ وقال ابن مسعود (الهلاك في اثنتين القنوط والعجب) وانما جمع بينهما لأن السعادة لاتنال إلاّ بالسعى والطلب والجد والتشمر والقانط لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعي وقد قال تعالى ﴿ فَلَا تُزَكُّوا

أنفسكم ﴾ أى لاتعتقدوا أنها بارّة وقال تعالى ﴿ لاَ تُبْطِلوا صَدَقاتِكم بِالمَنّ وَالأذَى ﴾ والمنّ نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب *

﴿ بيان آفة العجب ﴾

اعلم أن آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التى لاتخفى هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها لظنه أنه مستغن عن تفقدها وما يتذكره منها فيستصغره فلا يجتهد فى إزالته بل يظن أنه يغفر له وأما العبادات والأعمال فانه يستعظمها ويمنّ على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم إذا أعجب بها عمى عن آفاتها وذلك أن المعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التى هى نعمة من نعمه ويخرجه العجب الى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها . وان أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصرّ على خطاياه *

فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح

نسأل الله العظيم حسن التوفيق لطاعته *

﴿ بيان علاج العجب على الجملة ﴾

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل وذلك أن المعجب بجماله أوقوته أو نسبه ومالا يدخل تحت اختياره انما يعجب بما ليس اليه لأن كل ذلك من فضل الله وانما هو محل لفيضان جوده تعالى فله الشكر والمنة لا لك اذ أفاض على عبده مالا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فاذن منشأ العجب بذلك هو الجهل وازالة ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كلها من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق وهذا ينفي العجب والادلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة قال الله تعالى ﴿ وَلَولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكم وَرَحمَتُهُ مازَكا مِنكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَدًا ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس ﴿ مامِنكُم مِنْ أحَدٍ يُنجيهِ عَمَلُهُ ﴾ قالوا ولا أنت يارسول الله قال ﴿ ولا أنا إلاّ أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحمَتِهِ ﴾ ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها وأنّى لذى بصيرة أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه فإذًا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب *

﴿ بيان أقسام مابه العجب وتفصيل علاجه ﴾

اعلم أن مجموع مابه العجب ثمانية أقسام (الأوّل) أن يعجب ببدنه

فى جماله وهيئته وصحته وقوته وحسن صوته وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وعلاجه التفكر في أقذار باطنه فى أول أمره وفى آخره وفى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزّقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع *

(الثانى) البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وعلاجه أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه *

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدّين والدّنيا وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى أهل العلم اعراضا عنهم بالاستغناء بالرأى والعقل وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله ان أعجب به ولم يقم بشكره ويستقصر علمه وعقله وليعلم أنه ما أوتى من العلم إلاّ قليلاً وَإِنِ اتسع علمه وان ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وأن يتهم عقله وينظر الى الحمق كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدرى فان القاصر العقل لا يعلم قصور عقله فينبغى أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ومن أعدائه لا من أصدقائه فان من يداهنه يثنى عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه إلاّ الخير ولا يفطن

لجهل نفسه فيزداد به عجبا *

(الرابع) العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آبائه فى أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل وان اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف ومذمة النفس ولقد شرّفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليشرف بما شرفوا به ولذلك قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ أى لا تفاوت فى أنسابكم لاجتماعكم فى أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال ﴿ وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتْقَاكُم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ عَنكُم عبية الجاهِلِيَّةِ ﴾ أى كبرها ﴿ كُلُّكُم بنو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ ﴾ ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال ﴿ يافاطمةُ بنتُ مُحمدٍ ياصفيةُ بنتُ عَبدِ المطّلبِ عمّةُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وَسلّمَ إعملاَ لِأَنفسكما فإنّى لاَ أغنِي عَنكما مِنَ اللهِ شيأً ﴾ فبين أنهم اذا مالوا الى الدّنيا لم ينفعهم نسب قريش فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم فى التقوى والتواضع والا كان طاعنا فى نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم فى التواضع والتقوى والخوف والاشفاق *

(الخامس) العجب بنسب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدّين

وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في منكراتهم وما جروا على الناس من المحظورات فيشكر الله ان عصمه من تبعاتهم *

(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب كما قال الكفار ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَولاداً ﴾ وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة : وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا . ثم كيف يعجب وهم سيفارقونه إذا مات ودفن وحده ذليلا مهانا ويسلمونه الى البلى والحيَّات والعقارب ولا يغنون عنه شيأ ويهربون منه يوم القيامة ﴿ يَومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِن أَخيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ فكيف تعجب بمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرّك *

(السابع) العجب بالمال كما أخبر تعالى عن ذلك الكافر اذ قال ﴿ أَنا أَكثَرُ مِنكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه والى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وينظر الى فضيلة الفقراء وخفة حسابهم وكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بماله ولا يخلو من تقصير في القيام بحقوق المال من أخذه من حله ووضعه في حقه وأن مآل المتهور في الجمع والمنع الى الخزى والبوار *

(الثامن) العجب بالرأى الخطأ قال تعالى ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ وقال تعالى ﴿ وَهُم يَحسَبُونَ أَنَّهُم يُحسِنُونَ صُنعًا ﴾ وقد أخبر

رسول الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقا وكلّ معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون . وعلاجه أن يتهم رأيه أبدا لا يغتر به إلاّ أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة (ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلاّ بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشمير فى الطلب وممارسة للكتاب والسنّة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور) والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين * نسأله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهّال *

كتاب ذم الغرور

أن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة . ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا . وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلا . ولما كان الغرور أم الشقاوات . ومنبع المهلكات . لزم شرح مداخله ومجاريه . وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه (فالموفق من العباد . من عرف مداخل الآفات والفساد . فأخذ منها حذره . وبنى على الحزم والبصيرة أمره) *